الفكر التربوي عند علماء الغرب الإسلامي

ابن سحنون نموذجا

الدكتور: محمد الاجواد
المغرب

مقدمة:

أحمدك ربي وأستعينك وأصلي وأسلم على خيرة خلقك، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

تحتل التربية موقعا هاما في واقع الناس ونظريات العلماء، لما لها من أهمية بالغة في إصلاح المجتمع وتنشئة الأجيال ونهضة الأمم والحضارات.

والتربية في معناها الشمولي لا تنحصر في المجال الضيق المتعارف عليه ولكنها ثقافة بما للكلمة من معنى، إذ تضم ما هو أخلاقي وما هو فكري وما هو سياسي وما هو وجداني...

إذا ثبت هذا يمكن القول، أن المناهج التربوية تختلف باختلاف فهمنا للتربية في أهدافها ومقاصدها، حتى إن البعض اعتبرها أم الأزمات في الواقع الإسلامي على الخصوص وما عداها إنما هي مظاهر وتجليات وأعراض لجوهر واحد هو اختلال التربية. ومن هنا يختزل أصحاب هذا التصور الحل في تجاوز هذه الأزمة _أزمة التربية_.

وهكذا فالتربية تدخل ضمن علاقة المقاصد، التي يسعى الشارع إلى تحقيقها بالوسائل التي وضعها أسبابا وشروطا لبلوغها، ولئن كانت التربية وسيلة إلى غاية هي المصلحة، فإن فهم النصوص والنظريات التربوية غير معتبر في غياب التطبيق السليم على آحاد المكلفين، وتأسيسا على هذا النظر فإن مهمة المربي لا تنحصر في تلقين شحنات تربوية كيفما اتفق، بقدر ما تتمثل في استحضار آثارها ونتائجها، مما يعني أن الأمر يحتاج إلى مربي يفقه خبايا النفوس وأسرارها.

من هنا يحسن بالمربي أن يعطي من الدروس التربوية سواء منها النظرية أو العملية، بحسب ما تقتضيه مرحلة المتربي ومرتبته في الشريعة، وبحسب حظ نفسه ورغبته في الدنيا أو عزوفه عنها دون تكليفه مشقة يشمئز بسببها ويتساقط. لذلك لم يكن نزول القرآن منجما على سبيل الصدفة والعبثية وإنما لتحاشي نفور الناس، وتعليمهم منهج التعامل مع النفوس.

- ❖ عنوان الورقة:

عنوان الورقة البحثية التي أقدم: (الفكر التربوي عند علماء الغرب الإسلامي ابن سحنون نموذجا) وأعني بالتربية هنا مجال التعليم لأن المجال لا يتسع في هذا الموضوع إلى الإلمام بكل جوانب التربية.

- ❖ خطة الموضوع:

ففيما يخص المنهجية التي سلكتها لإنجاز هذا الموضوع، فقد قسمته إلى فصلين ومقدمة وخاتمة.

الفصل الأول: قسمته إلى أربعة مباحث.

المبحث الأول: مفهوم التربية

المبحث الثاني: مفهوم التربية في المعاجم الغربية

المبحث الثالث: مفهوم التربية في اللغة العربية

المبحث الرابع: مفهوم التربية الإسلامية

الفصل الثاني: النهج التربوي عند علماء الغرب الإسلامي. وفيه مبحث وسبعة مطالب.

المبحث الأول: التربية عند ابن سحنون.

المطلب الأول: ابن سحنون الفقيه والمعلم.

الفرع الأول: نسبه.

الفرع الثاني: مولده ونشأته.

الفرع الثالث: مؤلفاته.

الفرع الرابع: شيوخه وتلامذته.

الفرع الخامس: وفاته.

الفرع السادس: معجمه التربوي.

المطلب الثاني: النهج التربوي عند ابن سحنون.

الفرع الأول: المنهاج الدراسي وطريقة التدريس.

المطلب الثالث: المعلم.

الفرع الأول: شخصية المعلم.

الفرع الثاني: واجبات المعلم.

المطلب الرابع: مشاكل مرتبطة بالتعليم.

الفرع الأول: أجرة المعلم.

الفرع الثاني: أوقات الدراسة وأوقات العطلة.

الفرع الثالث: التأديب والعقوبة.

المطلب الخامس: النيابة عن المعلم.

المطلب السادس: خلاصة.

المطلب السابع: خطاطة تلخص أهم المحاور التي اهتم بها ابن سحنون في موضوع التربية.

الفصل الأول: مفهوم التربية والتربية الإسلامية.

تحتل المسألة التربوية موقعا مركزيا في الدين الإسلامي ومنهجه، وتقع في الجوهر من اهتماماته، ويرى علماء الإسلام أن مهمة الإصلاح وإقامة الدين تبدأ من داخل الصف وعلى مستوى الأفراد، ذلك أن وجود من تتمثل فيهم قيم الإسلام، هو الكفيل بالسير بمجتمعاتنا نحو التقدم والتطور، هذا وسأقسم هذا الفصل إلى أربعة مباحث الأول ويتحدث عن التربية إجمالا، والثاني يتحدث عن مفهوم التربية في بعض المعاجم الغربية، والثالث يتحدث عن مفهوم التربية في اللغة العربية والرابع يتحدث عن مفهوم التربية الإسلامية.

المبحث الأول: مفهوم التربية.

تطلق كلمة التربية بمعان متعددة متباعدة ومتقاربة منها مثلا:

1. تربية النبات: وذلك كتربية الزهور، والصبار والورود، وأمثالها...
2. تربية الحيوان: مثل تربية الخيول وتربية المواشي وتربية النحل وأمثالها...

ويلاحظ في هاتين الحالتين التركيز على "الخصائص الذاتية" للحيوان أو النبات وملاحظة إمكانية تنمية بعض هذه الخصائص والسمات.

وفي حالة الحيوان يضاف إلى الهدف السابق من تنمية بعض "الخصائص الذاتية" ترويض الحيوان ليصبح أكثر ائتلافا مع صاحبه الإنسان أو أكثر تلاؤما مع بيئة اجتماعية معينة، وهو ما يسمى "سياسة الحيوان".

ولكن التربية التي نقصدها في هذا البحث هي تربية الإنسان، ولابد أنها تشمل تنمية بعض "الخصائص الذاتية" أو "الترويض"، كما تشمل "التنشئة الاجتماعية" والتأهيل للحياة في مجتمع ما أو السياسة، ولكنها تزيد على ذلك بما يعطي الإنسان مكانة أعلى من مكانة النبات والحيوان، وذلك ما يعرف بالكرامة الإنسانية وتلك هي "التربية الربانية"[1].

المبحث الثاني: مفهوم التربية في المعاجم الغربية.

تستعمل في الغرب للدلالة على التربية كلمتان هما: éducation و pédagogie وأصل الكلمتين من اللاتينية أو اليونانية، متأثر بأوضاع تاريخية لابد من الإشارة إليها، فقد كان عند اليونان في عهد ازدهار حضارتها قبل الميلاد، نوعان من التربية: أحدهما في "أثينا"، والآخر في "إسبارطة".

ففي "إسبارطة" كان المعلمون يقودون الطفل ويسيرونه حسب ما تقتضيه مصلحة المجتمع من تربية عسكرية، فالمعلم هو القائد والطفل هو المقود، وكانت كلمة "éducar" "التسيير" هي الكلمة التي تعبر عن هذا النوع من التربية المسمى "éducation". أما التربية في "أثينا" فكانت تحرص على تقوية شخصية الطفل وتحرير استعداداته وميوله من كل ضغط خارجي، وتصور الآثار اليونانية التلميذ يسير شامخ الرأس بينما يسير خلفه المعلم حاملا عنه أدواته، وعلى هذا المعلم يطلق اسم "gogue" "غوجي" أو التابع أو الخادم وكلمة "péda" تدل على الطفل (المتعلم)، فالمربي إذا تابع للطفل لا مسير له[2].

معنى كلمة التربية في بعض المعاجم الغربية:

1. في المعجم اللغوي الفرنسي "ESSENTIEL" مترجم إلى اللغة العربية " التربية هي: فعل تطوير القدرات العقلية والجسمية والوجدانية عند الإنسان[3]".

2. في "LALANDE .A" مترجم إلى اللغة العربية "هي سيرورة تستهدف تحقيق النمو والاكتمال التدريجيين لوظيفة أو مجموعة من الوظائف عن طريق الممارسة، وتنتج هذه السيرورة إما عن الفعل الممارس من طرف الآخر (وهذا هو المعنى الأكثر عمومية) وإما عن الفعل الذي يمارسه الشخص على ذاته. وتفيد التربية بمعنى أكثر تحديدا، سلسلة من العمليات يدرب من خلالها الراشدون (الآباء عموما) الصغار من نفس نوعهم ويسهلون لديهم نمو بعض الاتجاهات والعوائد، وعندما يستعمل اللفظ وحده فإنه ينطبق في أغلب الأحيان، على تربية الأطفال[4]".

3. وفي "LEGENDRE.R" هي عملية تنمية متكاملة وديناميكية تستهدف مجموع إمكانات الفرد البشري (وجدانية وأخلاقية وعقلية وروحية وجسدية)[5].

4. وعند "DURKHEIM.E" هي العمل الذي تمارسه الأجيال التي لم تنضج بعد من أجل الحياة الاجتماعية، من أهدافها أن تثير لدى الطفل وتنمي عنده طائفة من الأحوال الجسدية والفكرية والخلقية التي يتطلبها منه المجتمع السياسي، في جملته، وتتطلبها البيئة الخاصة التي يعيد لها بوجه خاص[6].

من خلال قراءة هذه التعريفات يمكن لنا أن نستنتج أنها تشترك في مجموعة من الخصائص العامة والأساسية هي:

1. التأكيد على أن التربية خاصة بالنوع الإنساني.

2. اعتبار التربية فعل يمارس من طرف إنسان على آخر، وبصفة أخص من طرف راشد على صغير أو من طرف جيل وصل درجة النضج على الجيل اللاحق به.

3. التأكيد على أن هذا الفعل موجه لتحقيق غاية معينة.

4. التأكيد على أن غرض التربية بالأساس مساعدة الأفراد على اكتساب وتنمية مجموعة من الاستعدادات العامة.

المبحث الثالث: مفهوم التربية في اللغة العربية

أصل كلمة التربية هو (ربَّ) بتشديد الباء أي (ربب)، وجاء في معجم "مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس مايلي: (رب) الراء والباء يدل على أصول:

1. الإصلاح: فالأول إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب: المالك، والخالق، والصاحب، والرب المصلح للشيء، يقال: "ربَّ فلان ضيعته" إذا قام على إصلاحها. وهذا "سقاء مربوب" بالرب...والرب المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب، لأنه مصلح أحوال خلقه، والربي: العارف بالرب. وربيت الصبي أربه، وربته أربه، والربيبة الحاضنة، وربيب الرجل ابن امرأته، والرب الذي يقوم على أمر الربيب...

2. لزوم الشيء: والأصل الآخر "لزوم الشيء والإقامة عليه" وهو مناسب للأصل الأول: يقال: أربت السحابة بهذه البلدة إذا دامت. وأرض مرب لا يزال بها مطر. ولذلك سمي السحاب ربابا ويقال الرباب السحاب المتعلق دون السحاب، يكون أبيض ويكون أسود، والواحدة ربابة. ومن الباب الشاة الربي، التي تحتبس في البيت للبن، فقد أربت إذا لازمت البيت. ويقال هي التي وضعت حديثا. فإن كان كذلك فهي التي تربي ولدها، وهو من الباب الأول. ويقال الإرباب الدنو من الشيء، ويقال: أربت الناقة، إذا لازمت الفحل وأحبت، فهي مرب.

3. الجمع: والأصل الثالث ضم الشيء إلى الشيء، يقال للخرقة التي يجعل فيها القداح: ربابة، والربابة العهد، ويقال للمعاهدين أربة...وسمي العهد ربابة لأنه يجمع ويؤلف. ومما يشذ عن هذه الأصول : الربرب: القطيع من بقر الوحش وقد يجوز أن يضم إلى الباب الثالث فيقال إنما سمي ربربا لتجمعه كما قلنا في اشتقاق الربابة. ومنها أيضا "الربب" وهو الماء الكثير وسمي بذلك لاجتماعه... و"ر ب ي" الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه يدل على أصل واحد وهو الزيادة والنماء والعلو... ويقال ربيته وربيته إذا غذوته. وهذا مما يمكن أن يكون على معنيين: أحدهما من الذي ذكرناه، لأنه إذا ربا نما وزكى وزاد والمعنى الآخر من ربيته من الترييب...وأما المهموز فالمربأ والمربأة من الأرض. وهو المكان العالي يقف عليه عين القوم... وأنا أربأ بك عن هذا الأمر أي أرتفع[7].

وهذه الأصول إن كانت تدل على شيء فهي تدل على عبقرية اللغة العربية وإلمامها بجوانب التربية إلماما لا نجده في أي لغة أخرى، فابن فارس في هذه المادة (الراء والباء) يصر على أن العمل الأول للتربية هو الإصلاح فإن لم يكن هناك إصلاح فليس هناك تربية. وبذلك نستطيع أن ننتقد التربية القائمة على التقليد أو تكرار ما هو موجود في المجتمع من أصول وقواعد بأنه لا يشكل تربية بقدر ما يشكل ترويضا لا يليق أن يقتصر الإنسان عليه. فالإنسان، كل إنسان، عنده نزوع إلى الأعلى وهو يريد دائما أن يكون عنده أمل في غد أفضل من يومه الذي هو فيه.

وإلى معنى الإصلاح يضيف القيام عليه وذلك يستدعي الاستمرارية من جهة والقصدية من جهة أخرى. فالإصلاح لا يأتي صدفة بل هو عملية تحتاج إلى تخطيط وتنظيم وتنهيج، وذلك ما أتقنته التربية الاشتراكية واعترفت به إلا أن غياب الإصلاح عن الذهن أضاع الجهود التي بذلت في التخطيط والتنظيم والتنهيج.

وعند قول ابن فارس "والرب المصلح للشيء" يعطينا فكرة عن الدولة حينما تفرض نفسها ربا على المدرسة، دون أن يكون لديها منهج شامل للإصلاح، تسيء للتربية أكثر مما تحسن إليها.

وإذا انتقلنا إلى الأصل الثاني ويلخصه ابن فارس "لزوم الشيء" وهو مناسب "للأصل الأول" حيث بينا أن القيام عليه في الأصل الأول يقتضي "الاستمرارية" بكلمة "اللزوم" ونحن نعرف أن أحدث الصيحات في التربية هي الدعوة إلى "التربية المستمرة" التي سبق علماء الإسلام فدعوا إليها فنجد مما ورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول"لا يزال العالم عالما ما طلب العلم فإن ظن أنه قد علم فقد جهل"، وذلك طبيعي ما دامت التربية متصلة بالحياة أي تستمر مدى الحياة.

وحين يعبر عن هذه التربية بالسحاب القريب من الناس يظهر أن التربية لابد فيها من التقارب، وقد مرت بالعالم الإسلامي فترة ما زالت آثارها إلى اليوم، حين حاول المستعمرون فرض ثقافتهم على التربية حتى خرجت أجيالا بعيدة عن أمتها في عقلها وفي سلوكها.

ومع الاستمرار والقرب يشير إلى ناحيتين هامتين هما: "العطاء" و"المحبة" فالشاة الربي تحتبس في البيت لتعطي أهل البيت اللبن وهي التي أنجبت ولدا، ويحاط هذا العطاء بالحب فهي التي تربي ولدها فتلازمه ملازمة محاطة بالحب والرعاية.

ويأتي في الأصل الثالث بيان الجوانب الاجتماعية في التربية، والملازمة مع المحبة تؤدي إلى "الترابط" والتماسك كما تربط "الربابة" بين القداح. ويؤكد معنى أن تكون التربية رابطا معنويا يوحد اتجاهات أفراد المجتمع ويؤلف بينهم بإظهار أن الربابة تطلق على "العهد" ويقال للمعاهدين "أربة" لأن العهد يجمع ويؤلف بينهم.

ولا توجد تربية مثل التربية الإسلامية تربط الإنسان بالله خالق الناس جميعا يركز على معنى أن الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، بدلا من أن تربطه بقومية معينة أو طائفية معينة[8].

المبحث الرابع: مفهوم التربية الإسلامية (التربية في الاصطلاح).

يقول الله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ "(سورة الرعد الآية 11) فكان التغيير الاجتماعي رهين بتغيير ما بالأنفس وتغيير ما بالأنفس هو مهمة التربية الأولى وهذه المهمة ليست سهلة لأنها تتعلق بالإنسان ذلك المجهول الذي نكتشف جزءا منه يوما بعد يوم وسيستمر ذلك إلى أن تقوم الساعة مصداقا لقوله تعالى "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ "(سورة فصلت الآية 53). وإدخال السين على نريهم يفيد الاستقبال والاستقبال مستمر ومتجدد لا يتوقف إلى قيام الساعة فلكل عصر مستقبله وهو حاضر لما يأتي بعده وهكذا فالآيات مستمرة في الآفاق وفي الأنفس.

والتربية التي يمكن أن تقوم بتلك العملية تنبثق من الإسلام الذي هو شريعة الله والعمل بهذه الشريعة يقتضي أن يكون البشر على درجة تؤهلهم لحمل الأمانة ويقتضي هذا التطوير والتهذيب والتزكية لمادة التربية ونقصد بهذا الإنسان، وهذا التطوير والتهذيب والتزكية يمكن أن نطلق عليه التربية الإسلامية. فهي تعني كما يرى النحلاوي "تربية الإنسان على الإيمان بالله والاستسلام لشريعته...، تربية النفس على الأعمال الصالحة وعلى نهج الحياة الإسلامية، تربية المجتمع على التواصي بالحق للعمل به"[9]

والتربية الإسلامية تربية شاملة تهتم بالعبادة والسلوك وتهتم بالفرد والجماعة وتركز على العقيدة والعمل فهي تهتم بجميع جوانب الحياة وتهتم أيضا بما بعد الحياة حيث إن نظرة الإسلام تربط بين الدنيا والآخرة، والتربية الإسلامية تعمل على المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها وتنمية مواهبه واستعداداته وتوجيه الفطرة والمواهب والاستعدادات وفق توجيهات الإسلام وتعمل أيضا على السير في هذه العملية بتدرج[10].

وقد تناول محمد قطب التربية الإسلامية بقوله: "عالجت التربية الإسلامية الفرد معالجة كاملة شاملة لجسده وروحه وعقله ووجدانه وعلاقاته الاجتماعية مع الآخرين هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك شيئا ولا تغفل عن شيء جسمه وعقله وروحه ورغباته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض. فالإسلام يأخذ الكائن الحي البشري كما هو عليه بفطرته التي خلقه الله عليها فهو لا يغفل شيئا من هذه الفطرة ولا يفرض عليها شيئا في تركيبها الأصيل ويتناول هذه الفطرة بدقة بالغة فيعالج كل جزء من حياة الإنسان في تناغم تام ويعالج كل وتر فيها وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر فيضبطها بضبطها الصحيح وفي نفس الوقت يعالج كل الأوتار مجتمعة.

وإذا كانت التربية تختلف باختلاف المذاهب والمجتمعات وينظر إليها المربون والفلاسفة نظرات مختلفة من زوايا مختلفة ولأن موضوعنا يركز على التربية الإسلامية فيرى الباحث أنه لا حاجة لإيراد مفهوم التربية في الفلسفات المختلفة فلقد كتب الكثيرون حول آراء أفلاطون وأرسطوا وروسو وامتلأت بهذه الآراء كتب فلسفة التربية ولكننا هنا نركز على التربية الإسلامية التي تنطلق من منهج وضعه الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "(سورة الملك الآية14) وهو الذي سن سننا لنموها ومعاملتها وتفاعلها[11].

وللتربية الإسلامية أسس وأهداف ووسائل. والأسس ثلاثة أنواع فكرية وتعبدية وتشريعية، وتشتمل الأسس الفكرية على مميزات التصور الإسلامي ونظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة. فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكرم ومختار وقادر على التعلم، كما أنه مكلف ومسؤول ومستخلف في الأرض والكون في نظر الإسلام خاضع لله وقائم على سنن ونواميس وضعها الخالق عز وجل كما أنه مسخر للإنسان الذي بنفسه يخضع في حياته لسنن اجتماعية ثابتة[12].

أما الحياة فقد نظر إليها الإسلام نظرة جديدة ملؤها الشعور بالمسؤولية وتوجيه الدوافع إلى الغاية المثلى المتمثلة في الاستخلاف في الأرض وإقامة العدل فيها. والقرآن يشتمل على آيات كثيرة تحذر الإنسان من الاغترار بالدنيا، والغفلة عن الهدف الذي وجد من أجله،

وتحثه على العمل فيها بجد وطموح مع التمتع بخيراتها في حدود الشرع، ثم الأخذ بأسباب القوة والعزة وتجنيد النفس لمنازعة أعداء الفضيلة والخير ونصرة الحق.

وفيما يتعلق بالأسس التعبدية للتربية فإن ممارسة العبادات لها أثر عميق في سلوك المسلم ومعاملاته وهكذا يتجلى الأثر التربوي للعبادة في أمور كثيرة منها أن العبادة في الإسلام تعلمنا الوعي الفكري الدائم، الذي يجعل من الإنسان شخصا منطقيا ومنهجيا في كل أعماله...[13]

وتعتبر العقيدة الإسلامية العمود الفقري للشريعة، ذلك أن الإيمان بالله وبالملائكة وبالكتب المنزلة وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره يعين الإنسان على التحقق بالتربية الإسلامية الفاضلة. فعقيدة التوحيد "المنبثقة عن الإيمان بالله" تنظم حياة الإنسان النفسية، وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه، وتجعل كل عواطفه وسلوكياته تتمحور حول هدف واحد هو الخضوع لله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والإيمان باليوم الآخر يربي عند المسلم الشعور الحقيقي بالمسؤولية ويدفعه إلى تحقيق الأخلاق المطلقة، وضبط الغرائز.[14]

وفيما يتعلق بأهداف التربية الإسلامية، يمكن القول أنها أهداف بلغت في سموها وشرفها مبلغا لا مثيل له. ومن أبرز خصائص أهداف التربية الإسلامية اصطباغها بالصبغة الدينية والخلقية، وشموليتها لكافة جوانب شخصية المتعلم وكافة نواحي التنمية في المجتمع، والتوازن في اهتماماتها، ووضوحها، وخلوها من التناقض فيما بينها وبين وسائل تحقيقها. وهذه الخصائص التي تمتاز بها أهداف التربية الإسلامية لا توضح فقط الطابع المميز لهذه الأهداف، بل تشير أيضا إلى أهم المبادئ التي تقوم عليها أهداف التربية الإسلامية. أو بعبارة أخرى إن تلك الخصائص تحمل في طياتها مجموعة من المبادئ المتفقة معها في المعنى، ونذكر ونوضح منها بإيجاز ما يلي:

1. مبدأ الشمول:

يعني النظرة الكلية إلى الدين والإنسان والمجتمع والحياة. فالإسلام الذي تقوم عليه التربية الإسلامية شمولي في نظرته واهتماماته وتفسيره للوجود والحياة والكون، يؤكد التصور الجامع بين الروح والمادة، ويهتم ببناء الفرد كما يهتم ببناء المجتمع، ويقدر مصالح الفرد والمجتمع معا. وهو كذلك ينظر إلى الأشياء نظرة كلية، ويطلب من المؤمنين به والناس عامة أن يتبنوا هذه النظرة الكلية في حياتهم وفي تمسكهم بالدين وإطاعتهم لأوامره. فلا يرضى لهم مثلا بالنسبة لإطاعة أوامر الدين وتعاليمه أن يقبلوا من الدين أشياء، ويتركوا أشياء أخرى، كأن يقبلوا عباداته ويتركوا معاملاته وأخلاقه، بل يوجب عليهم أن يأخذوا الدين ككل ويربطوا بين أجزائه كلها في إطار واحد.

2. مبدأ التوازن والاعتدال:

والتربية الإسلامية في أهدافها لا تقوم فقط على مبدأ الشمول بل تقوم أيضا على مبدأ التوازن والاعتدال الذي يعني فيما يعني الحرص على: تحقيق التوازن المرغوب بين جوانب النمو المختلفة في شخصية الفرد وحياته وفي حياة المجتمع، وتحقيق التوازن في إشباع الحاجات المختلفة للفرد والجماعة، وتحقيق التوازن بين مقتضيات الحفاظ على تراث الماضي، وحاجات الحاضر ومتطلبات التغلب على مشاكله، وحاجات المستقبل ومتطلباته، دون طغيان جانب على آخر أو دون الاهتمام بجانب على حساب آخر.

3. مبدأ الوضوح:

إن الإسلام الذي تستمد منه التربية الإسلامية مبادئها ومُثلها وأهدافها، والذي يمتاز بشموليته ونظرته الكلية للحياة وبتوازنه ووسطيته واعتداله في مقاصده ومطالبه، يمتاز أيضا بوضوح مبادئه وتعاليمه وأحكامه، يقدم الإجابات الواضحة للنفس الإنسانية والعقل البشري في كل القضايا والمسائل، وإزاء كل التحديات والأزمات. ومن وضوح الإسلام تستمد التربية الإسلامية وضوح أهدافها ومناهجها وطرقها.

ويعتبر مبدأ الوضوح من أبرز مبادئها وأبرز الشروط التي ينبغي أن تتوفر في أهدافها، لأن وضوح الهدف يضفي معنى وقوة على التعليم ويدفع إلى الانطلاق الواضح في سبيل تحقيقه ويحول دون الاختلاف في تفسيره وتأويله.

4. مبدأ الواقعية وقابلية التطبيق:

فالشريعة الإسلامية والتربية الإسلامية يقومان على مبدأ الواقعية والبعد عن الخيال والإسراف والتخبط ويسلكان في سبيل تحقيق مقاصدها منهجا علميا، يناسب الفطرة ويلائم الظروف والإمكانيات المتاحة لكل من الفرد والمجتمع. ولم تكن مبادئ وأهداف الشريعة الإسلامية والتربية الإسلامية مجرد شعارات تردد أو مجرد مبادئ مثالية لا إمكانية لتطبيقها في واقع الحياة وفي دنيا الناس، بل كانت ولا تزال وستظل على الدوام مبادئ وأهداف واقعية ممكنة التطبيق في عمومياتها في كل زمان ومكان[15].

الفصل الثاني: النهج التربوي عند علماء الغرب الإسلامي.

تعد التربية من أهم وسائل التنمية والتنشئة الاجتماعية والترقي، لذا توليها الأمم والشعوب المتحضرة أهمية قصوى، وكذلك كانت عند المسلمين، فقد أولاها الإسلام المكانة المرموقة وجعلها من وظائف النبوة قال الله تعالى:" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(سورة الجمعة الآية 2). وحث الإسلام على طلب العلم والتعلم والتعليم وتربية الأبناء، والأدلة على هذا كثيرة. وقد انبرى لمهمة التعليم إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم طائفة من الصحابة كان منهم من انقطع للعلم والتعليم والجهاد كأهل الصفة الذين شكلوا في الحقيقة النواة الأولى لفكرة المدرسة الإسلامية فيما بعد، والتي يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير أجور وأرزاق كانوا ينالونها من الأوقاف[16]. وتوارثت الأمة مهمة التربية جيلا بعد جيل وأصبحت عند المسلمين وبحق تربية شاملة، متكاملة بمعنى أنها تربية للجميع، وليست قاصرة على طبقة أو جنس أو موقع جغرافي، وتربية متكاملة بمعنى أنها تعنى بالنمو الشامل للفرد جسميا وعقليا وروحيا وخلقيا ونفسيا واجتماعيا.

وظلت التربية عند المسلمين شغلا أساسيا لعدة فاعلين ومتدخلين ومن هؤلاء الفاعلين الذين حازوا قصب السبق في مختلف العلوم وفي الجانب التربوي على الخصوص نذكر: ابن سحنون، ابن خلدون، أبو إسحاق الشاطبي، أبو حامد الغزالي...إلخ.

المبحث الأول: التربية عند ابن سحنون

استقطبت الكتب العربية الإسلامية اهتمام أغلب الدارسين والباحثين، عرب وأجانب، وقد كثرت الدراسات واختلفت النتائج تبعا للمناهج المعتمدة في الموضوع الواحد، إلى درجة السقوط في نوع من الابتذال أصبحت معه الإشارة إلى جدة وأهمية الموضوع "عادة" لكل من يريد البحث أو إعادة قراءة هذه المؤلفات.

ولن أخرج عن هذه "العادة"، فموضوع التربية والتعليم يبقى من الجوانب المهمة التي تناولتها الكتب العربية الإسلامية عامة. وعلى الخصوص "رسالة آداب المعلمين" لمؤلفها ابن سحنون الذي يعتبر من الكتب العربية الإسلامية الأولى في موضوع التربية والتعليم.

وحسب اطلاعي في هذا المجال —المجال التربوي— فإن ما كتب في هذا الموضوع، خاصة في العصر الإسلامي، جاء بشكل متفرق بين كثير من الاختصاصات: الفقه الإسلامي، الأصول والمقاصد، الأدب، الفلسفة العربية الإسلامية ومجال التربية والتعليم، ولعل توزيع هذه الأفكار التربوية العربية الإسلامية كان من جهة وراء استغرابي الأولي، ومن جهة أخرى الحافز على اختياري البحث في هذا الموضوع.

وكان من الطبيعي أن تصادفني بعض الصعوبات المتجلية في الفكر السحنوني المتأرجح بين الصيغة الدينية المحضة وبين الصيغة التربوية الصرفة. ومهما كانت الصعوبات، فإنني أعتبرها حافزا للبحث والتنقيب.

ولما كان التعليم في نظر الإسلام فرض عين على كل مسلم ومسلمة انطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب[17]". كان من الضروري بروز علماء مسلمين نبغوا في هذا المجال ومن هؤلاء الذين كان لهم السبق في التأليف في هذا الموضوع نجد ابن سحنون. ونظرا لما لفكره التربوي من إسهامات بالغة في الحضارة الإنسانية، فقد ارتأيت أن أعرض لبعض جوانبه من خلال رسالة "آداب المعلمين".

فمن هو يا ترى ابن سحنون؟ وما هي آراؤه في التربية والتعليم؟ وما هي الخصائص التي اشترطها في كل من المدرس والمتعلم؟ هذه إذن هي الموضوعات التي سأتناولها في طريق تجلية الفكر التربوي السحنوني.

المطلب الأول: ابن سحنون الفقيه والمعلم.

الفرع الأول: نسبه.

هو أبو عبد الله محمد بن أبي عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي القيرواني[18].

قدم جده سعيد بن حبيب، مع جنود أهل حمص في القرن الثالث للهجرة[19]، ضمن جملة من الحملات التي أرسلتها دمشق تعزيزا للفتح الإسلامي في بلاد المغرب[20].

نزل أبوه عبد السلام في مدينة القيروان، وأقام فيها، وأخذ العلم من علماء إفريقية، ثم رحل إلى مصر عام 188 هـ ودرس على كبار أصحاب مالك وخصوصا عبد الرحمان بن القاسم سنة 198 هـ[21].

وبلغ أبوه عبد السلام من العلم مبلغا عظيما حتى عرف فيما بعد بسحنون. وسحنون —طائر حديد النظر[22]— وسمي كذلك لحدة ذهنه[23].

الفرع الثاني: مولده ونشأته.

كان ابن سحنون إماما ثقة عالما بالفقه عالما بالآثار لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ألف في جميع ذلك كتبا كثيرة نحو مائتي كتاب في العلوم والمغازي والتواريخ وكان أبوه يقول ما أشبهه إلا بأشهب وكانت له حلقة غير حلقة أبيه ولد سنة اثنتين ومائتين 202هـ في القيروان، وهي مدينة غدت مركز إشعاع المذهب المالكي في المغرب[24].

الفرع الثالث: مؤلفاته.

وضع ابن سحنون رسالة قصيرة بعنوان "كتاب المعلمين" اعتبرها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه "التربية في الإسلام" مصدرا لما كتبه أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي، الفقيه المالكي القيرواني في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي، واعتبرها الدكتور عبد الله عبد الدايم في كتابه "التربية عبر التاريخ" مؤلفا قيما في التربية والتعليم عند المسلمين. ولهذه الرسالة تسمية أخرى هي "آداب المعلمين".

وأول من نشر هذه الرسالة هو حسن حسني عبد الوهاب، تونس: 1931، ثم ألحقها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه "التربية في الإسلام" الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف[25].

ولابن سحنون مؤلفات كثيرة في مجالات متعددة كالحديث والفقه، والتاريخ، وأدب المناظرة، والخلافيات التي ابتلي بها عصره وأكبر كتاب له يقع في مائة جزء[26].

وما يهمنا هنا هو هذه الرسالة التي اشتهر بها في المجال التربوي، والتي تعد بحق مرآة تعكس واقع التربية والتعليم في العهود الأولى للمجتمع العربي الإسلامي.

الفرع الرابع: وفاته.

توفي محمد ابن سحنون رحمه الله بالساحل سنة 256 هـ بعد موت أبيه ب 16 سنة، وجيء به إلى القيروان فدفن بها إلى جانب والده[27].

الفرع الخامس: معجمه التربوي.

المصطلح التربوي	الصفحة
تعليم القرآن–تعلم–علمه–حملة القرآن–فاقرءوا.	01
قرأ–إعراب–تعلم القرآن–الكتاب–تعلم القرآن وعلمه–معلم–يعلم الأولاد–أميين–يعلم الكتاب–المعلم–تعليم القرآن–أهل العلم–المعلمين.	02
المعلم–محو ذكر الله–الكتاب–الألواح–المعلم–المؤدبون–يمحون به ألواحهم–يكتب–الصبيان–الكتاب–المسائل–لايمح اللوح برجله.	03
الأدب–ضربني المعلم–معلموا صبيانهم–يضربهم إذا غضب–يضربهم على منافعهم–لا يجاوز بالأدب ثلاثا–يؤدبهم على اللعب والبطالة–لا يجاوز بالأدب عشرة على قراءة القرآن لا يجاوز أدبه ثلاثا–أدب الصبي ثلاث درر[28].	04
أهل العلم–الأدب على قدر الذنب–الختم–ما يجب في الختم للمعلم–الختمة–الإذن للصبيان اليوم ونحوه[29]–المعلمين–المعلم يعلم بأجر معلوم.	05
لا يكلف المتعلمين فوق أجرته شيئا–ما ينبغي أن يخلى الصبيان فيه[30]–الفطر يوما واحدا–والأضحى ثلاثة أيام–يتعاهد الصبيان[31]–يخبر أولياءهم إن لم يجيئوا–المعلم–العريف[32]–التعليم–منفعة للصبي في تخريجه.	06
لمعلم–الصبيان–يتفقد المتعلمين–على المعلم أن يلزم الاجتهاد ويتفرغ لهم–لا ينشغل على المتعلمين بشيء–المعلم أجير–يجعل لهم وقتا يعلمهم فيه الكتاب–يخرجهم–يبيح لهم أدب بعضهم بعضا[33]–لا يجوز له أن ضرب رأس الصبي ولا وجهه[34]–لا يجوز له أن يمنعه من طعامه أو شرابه–يكتب لنفسه كتب الفقه–يكتب لنفسه وللناس–كيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه لما لا يلزمه[35].	07
يكتب إلى أحد كتابا–يخرّج الصبي–كتابة الرسائل–الشعر–الغريب–العربية–الخط–النحو–إعراب القرآن–شكل–الهجاء–الخط الحسن–القراءة الحسنة–التوقيف–الترتيل[36]–يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة–على لعلم أن يكسب الدرة والفلقة–وعليه كراء الحانوت[37]–يتفقدهم بالتعليم والعرض–يجعل لعرض القرآن وقتا	08

معلوما[38]- يأذن لهم يوم الجمعة[39]-يعلمهم الخطب-ولا أرى أن يعلمهم ألحان القرآن ولا التحبير[40]- وليعلمهم الأدب.	
ليجعل الكتاب من الضحى إلى الانقلاب[41]-يملي بعضهم على بعض[42]-وليتفقد إملاءهم[43]-لا ينقلهم من سورة إلى أخرى حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها-يعلم القرآن-قرأ الصبي وعرف حروف القرآن وأقام إعرابه-لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه-وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة.	09
يعلمهم الوضوء والصلاة-وليتعاهدهم بتعليم الدعاء-يعلمهم سنن الصلاة-لا يعلم أولاد النصارى الكتاب-يجوز أن يقرأ الصبي في اللوح على غير وضوء-يتعلم-المعلم-المصحف-وليعلمهم الصلاة على الجنائز-وليجعلهم بالسواء في التعليم.	10
المعلم-الصبي-قرأها-أكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن بالغلمان[44]-يأمرهم بالكف عن الأذى-يرد ما أخذ بعضهم لبعض.	11
إجارة المعلم-المؤنة في التعليم-أجرة المعلم-إملاء بعضهم على بعض.	12
المعلم-العريف.	13
الاستضهار-القراءة بالنظر-استجار المعلم لتعليم الصبيان-إذا أدب المعلم التلميذ فحدثت له عاهة فعليه الكفارة.	14
الدية على العاقلة إذا جاوز الأدب-يعلم الأولاد الخط والهجاء-لا يبيع كتب الشعر أو النحو ولا يستأجر المعلم لتعليم ذلك مفردا- لا يعلم المعلم أبجاد هوز فذلك حرام[45].	15
إذا ضرب بالدرة فأصاب الولد بعاهة فالدية على العاقلة فيما لا يجوز له-وإن ضرب باللوح أو بعصا فقتل لتعلم فعليه القصاص-لابأس بالإجارة على تعليم فقه والفرائض والشعر والنحو جميع مثل القرآن-الفقه لا يستظهر مثل القرآن.	16

المطلب الثاني النهج التربوي عند ابن سحنون.

من خلال قراءة رسالة آداب المعلمين فإنه يمكننا أن نحصر المواضيع التي تناولتها في النقاط التالية:

1. ما جاء في تعليم القرآن الكريم.
2. ما جاء في العدل بين الصبيان.
3. باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى، وما ينبغي أن يفعل من ذلك.
4. ما جاء في الأدب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز.
5. ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم.
6. ما جاء في القضاء بعطية العيد.
7. ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان.

8. ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب.

9. ما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها.

والملاحظ أن هذه الرسالة التي وضعها ابن سحنون تتضمن منهجه التربوي العام، غير أنه ألمح إليه–المنهج– مشتتا بين هذه العناوين التي ذكرت، مما يوحي أن أغلبها إجابات عن أسئلة كانت تطرح على ابن سحنون، والباقي منها هو استدراكات يشير إليها مستبقا التساؤل عنها.

وفي سبيل جعل المنهاج أقرب إلى التناول، في وحدة متقاربة العناصر، يسهل مناقشتها وتحليلها يمكننا تبويب الموضوعات التربوية التي عالجها ابن سحنون على الشكل الآتي:

الفرع الأول: المنهاج الدراسي وطريقة التدريس.

أولا: المنهاج الدراسي:

يتكلم ابن سحنون طويلا بالنسبة لحجم رسالته، عن فظل العلم وأهله وهكذا فإننا نجده يدعو إلى طلب العلم والعمل به، ويذكر في ذلك بعض الأحاديث النبوية التي تشيد بالعلم وفضله، وتحث على تعلم القرآن وتعليمه، ويشدد على قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه[46]".

وكما تجدر الإشارة إلى أن ابن سحنون كان ينظر إلى مواد التدريس حسب حاجيات المجتمع والتي تسهم في بناء الفرد المسلم، المدافع عن العقيدة والمتمسك بمذهب مالك وهكذا فإننا نجده يقسم المواد إلى ثلاثة أقسام:

مواد إلزامية: ويتصدر القرآن الكريم قائمة هذه المواد. وليبين ابن سحنون أهمية وأسبقية تعلم القرآن على غيره من العلوم فإنه ساق اثنا عشر حديثا يبين من خلالها ما لتعليم القرآن وتعلمه من أهمية دينية كبيرة عند الكبار والصغار. كما أننا نجده يلحق بتعلم القرآن مواد أخرى تتفرع عنها منها: إعراب القرآن والشكل والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل. تلك إذن هي المواد التي يجب على المعلم تلقينها للصبيان أو هي "البرنامج المقرر" بحسب الاصطلاح الحديث. كما يدخل ابن سحنون ضمن هذا القسم أركان الإسلام وخاصة الصلاة وشروطها من وضوء وأفعال الصلاة وغيرها لأن ذلك من أركان دينهم يجب عليهم تعلمها.

مواد اختيارية: وتشمل هذه المواد: الحساب، الشعر وقواعد اللغة العربية. وهذه المواد لا تعتبر واجبا حيث يترك فيها الحرية للمعلم، فهي من باب الاستحسان ما دام الأهل لم يشترطوا على المعلم تعليمها لصبيانهم. ويكون المعلم متطوعا في حال تعليمهم إياها.

ممارسات أخرى: إضافة إلى المواد التدريسية السابقة الذكر، نجد الفكر السحنوني يحمل مجموعة من التوجيهات والتعليمات للمعلم تجعل برنامجه متكاملا، تتمثل في تعليمه أنواع الدعاء، وذلك من أجل التقرب إلى الله، وتعريفه بعظمته وجلاله. ولا ينسى ابن سحنون في برنامجه وجوب تعليم الصبي الأدب، والمقصود به هنا السلوك الصحيح، وحسن معاملة الناس وقواعد التصرف اللائق في مختلف مناحي الحياة[47].

ثانيا: طريقة التدريس:

في عرضه لطريقة التدريس يشير ابن سحنون إلى وسيلة التعلم: "الألواح" ويبين كيفية محوها مستشهدا ببعض الأحاديث النبوية (فيمنع الصبي من محو اللوح برجله لما في ذلك من امتهان لكتاب الله تعالى).

والمعلم إما أن يكتب للأطفال، —وهذا في أول تعليمهم— وإما أن يملي عليهم، وهذا بعد أن يقضوا مرحلة متقدمة في الكُتاب. ويجيز ابن سحنون أن يملي الصبيان بعضهم على بعض لأن في ذلك تقوية لملكتهم اللغوية، وتعويدا لهم على الكتابة دون خطأ، ولا يتحقق ذلك إلا بمراقبة إملائهم.

كما يمنع ابن سحنون انتقال الأطفال من سورة إلى أخرى مالم يحفظوها بإعرابها وكتابتها. وهو بهذا يؤكد على مسألة تربوية أساسية، وهي إتباع أسلوب التدرج لنقل المتعلم من سورة قرآنية إلى أخرى. وقياسا على ذلك نقله من مادة إلى أخرى. هذا التدرج الذي يقضي أن يتقن الطفل المادة الأولى قبل السماح له بالانتقال إلى غيرها وهو ما أصبح يطلق عليه الآن بالكفاية الأساس التي تقتضي أن يتمكن منها المتعلم حتى يسمح له بالانتقال إلى غيرها.

يتضح من خلال ما سبق أن طريقة التدريس التي عرضها ابن سحنون تعتمد تارة —وذلك حسب مواد التدريس— الإلقاء (الطريقة الإلقائية[48])، وتارة أخرى الحوار والنقاش(الطريقة الحوارية العمودية والأفقية[49])، وتدمج وسائل تعليمية بسيطة كالألواح، ولا زالت هذه الطريقة تستعمل في الكتاتيب كما في بقية أسلاك التعليم الأخرى.

المطلب الثالث: المعلم

الفرع الأول: شخصية المعلم

لم يضع ابن سحنون شروطا واضحة لمن يريد الانخراط في سلك التدريس، لكننا نلمس في منهجه نواح عديدة يجب أن يتحلى بها المدرس وهي:

أولا: المستوى العلمي: إذا كان من واجب المعلم إعداد الصبي لدخول المجتمع بقوة، وذلك بتعويده أثناء الدرس على مساعدة رفاقه، وعلى كتابة الرسائل للناس، وعلى القيام بواجبات اجتماعية والتحلي بحسن التعامل واللياقة والبروز قدوة ومثلا في وسطه حسب الشرع المتمثل في السنة النبوية وسيرة السلف الصالح، فإن هذا الدور لا يقوم به إلا من توفرت فيه بعض الصفات:

- حفظ القرآن ومعرفة أحكام الوقف والترتيل.
- العلم بالفقه.
- المعرفة بالنحو.
- إتقان الخط.
- الإطلاع على التراث ليتاح له تحفيظ الصبيان الأشعار الجميلة[50].

ثانيا: المستوى الأخلاقي والسلوكي: المعلم في التربية الإسلامية هو العَبارة التي ينتقل بها الصبي إلى الاقتداء بالنموذج الإسلامي المتمثل في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. وخطورة دور المعلم في الكتاب أنه مستمر مع الصبيان طيلة مرحلة التعليم، مما يكسبهم عادات ومواقف وصورا من السلوك[51]. لذلك ركز كل الفقهاء على تحديد سلوك وممارسات أخلاقية للمعلم، بل إن الخلفاء الأمويين كانوا

يشترطون على مؤدبي[52] أولادهم مجموعة من الصفات والسلوكات تهدف إلى إعطاء الصبي صورة تستحق الاقتداء من جهة، وتضبط سلوك المعلم من جهة أخرى. وابن سحنون في هذا المجال يعطي للنص الشرعي سلطته، حيث يطلب من المعلم: التقوى والإخلاص والأمان والحلم، وهي صفات تستمد قوتها وشرعيتها من القرآن والسنة.

الفرع الثاني: واجبات المعلم

من خلال رسالة "آداب المعلمين" فإن ابن سحنون يتناول واجبات المعلم من الزاوية الفقهية فهو يقدم لنا ما يجوز وما لا يجوز شرعا للمعلم، وهو بذلك حاول أن يحدد حقوق المعلم وواجباته تجاه طلابه، وما يقابلها من حقوق للطلاب، ثم حقوق الأهل وواجباتهم إزاء المعلم والولد.

1. العدل والمساواة بين المتعلمين:

في هذا الباب أشار ابن سحنون إلى ضرورة العدل والمساواة بين الصبيان أثناء التعلم، سواء أكانوا أغنياء أو فقراء، أذكياء أو بلداء، شرفاء أو عاميين —من عامة الناس—.

وهو "ابن سحنون" في ذلك يستشهد ببعض الأحاديث النبوية مثل: "أيما مؤدب ولي ثلاث صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية، فقيرهم مع غنيهم، وغنيهم مع فقيرهم، حشر يوم القيامة مع الخائنين[53]".

ورغم أن ابن سحنون لم يشر إلى العواقب التربوية السلبية التي قد تنتج على عدم العدل والمساواة بين الصبيان، فإنه يرى وجوب العدل بينهم–الصبيان– وعدم التمييز بينهم إن من حيث النسب أو من حيث انتمائهم الاجتماعي، فكلهم سواسية أمام التعلم، ومن خالف ذلك كان في نظر "ابن سحنون" خائنا للأمانة —أمانة التعليم والتعلم— ويحشر يوم القيامة مع الخائنين.

2. الحرص على زمن التدريس:

يعالج "ابن سحنون" في هذا الباب قضية تربوية هامة تتعلق بوقت المتعلم فيرى أنه من حق المتعلم على المعلم أن يحفظ له وقته، فنجده يقرر ما يلي:

قال أبو عبد الله محمد ابن سحنون: وليلزم المعلم الاجتهاد، وليتفرغ لهم، ولا يجوز له الصلاة على الجنائز، إلا فيما لابد منه ممن يلزمه النظر في أمره، لأنه أجير لا يدع عمله، ولا يتبع الجنائز ولا عيادة المرضى[54].

وقال أيضا —لما سأل هل للمعلم أن يكتب لنفسه كتب الفقه أو لغيره؟— قال مجيبا رحمه الله : أما في وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس، مثل أن يأذن لهم في الانقلاب، وأما ما داموا حوله فلا، ولا يجوز له ذلك، وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه لما لا يلزمه؟ ألا ترى أنه لا يجوز له أن يوكل تعليم بعضهم إلى بعض، فكيف يشتغل بغيرهم[55]؟.

من خلال هذا يتبين لنا مدى الأهمية التي يوليها ابن سحنون لوقت المتعلمين، غير أنه تجدر الإشارة إلى أن ابن سحنون أشار إلى مسائل أخرى تتعلق بالوقت فأباح للمعلم أن يستعين بطلابه لقضاء الحاجات الخاصة به كما له أن يحدد الإجازات ومدتها ومناسبتها كما يدخل في ضمن اختصاصاته الاتصال بأهل المتعلمين ليخبرهم عن عدم حضور أبنائهم عند تغيبهم.

3. الحرص على الآداب الشرعية:

يؤكد ابن سحنون على المعلم أن لا يعلم أولاد النصارى القرآن في الكُتاب، كما يؤكد ويشدد على مسألة الفصل بين الجنسين في قاعة الدرس[56]، فلا يخلط بين الجواري والصبيان، كما يطلب ابن سحنون من المعلم أن يستمع إلى شكاوى المتعلمين لينصف بينهم.

المطلب الرابع: مشاكل مرتبطة بالتعليم.

أشار ابن سحنون في رسالته إلى مجموعة من القضايا التي وقع الخلاف فيها في عصره ومن ضمن هذه القضايا نجد:

الفرع الأول: أجرة المعلم:

في هذا الباب، يعرض ابن سحنون إلى قيمة إجارة المعلم وإلى وقت وجوبها، حيث يمثلها بعقد كراء، بين أولياء وآباء الصبية والمعلم، ويحدد قيمتها وكيفية آدائها (شهرا بشهر أو سنة كاملة...)، كما يوجب للمعلم إضافة إلى ذلك مصاريف الختمة، ويستشهد في ذلك، بقول مالك: "تجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره".

وفي المقابل، فقد جعل ابن سحنون نظاما لمراقبة المعلم وتقويمه، حيث إذا لم يتَهَج الصبي ما يملى عليه، ولم يفهم حروف القرآن، لم يعط المعلم شيئا، وأُدبَ المعلمُ ومنع من التعليم إذا عرف بهذا، وظهر تفريطه.

الفرع الثاني: أوقات الدراسة وأوقات العطلة:

من المعلومات الهامة التي يقدمها ابن سحنون ضمن منهجه التربوي تحديده لساعات التدريس اليومي والذي يبتدأ من الضحى إلى الانقلاب، وأن الأسبوع ينتهي بعشية يوم الخميس.

الفرع الثالث: التأديب والعقوبة:

يبدأ ابن سحنون هذا الباب بقصة ولد "سعد الخفاف" الذي أتى أباه باكيا بسبب عقاب المعلم له. وكان هذا الحدث هو سبب محادثة ذلك اليوم، حيث ذكر بعض الأحاديث النبوية التي لا تجيز عقاب الصبيان، إذ لا يحق للمعلم أن يعاقب صبيته إلا بإذن من أوليائهم، وبروح من العدل، فلا يضربهم وهو غضبان، ولا على غير منافعهم، ولا بأس أن يضربهم على منافعهم. وفي معرض حديثه عن هذا الموضوع ذكر بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "شرار أمتي معلموا صبيانهم أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين[57]". هذا وقد اشترط في الضرب أن لا يكون على الوجه أو في الرأس وأن لا يتعدى ثلاث أسواط في القرآن وعشر أسواط فيما عدا ذلك كالتأديب على اللعب والبطالة والخمول والتكاسل، ويشير ابن سحنون في حديثه هذا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في تأديب النساء. وهذه العقوبات التي ذكرت تكون من حق المعلم وحده فلا يجوز له أن يوليها لغيره من المتعلمين. وتلك نظرية صائبة في معرفة نفسانية الولد، وفي فعالية العقاب.

المطلب الخامس: النيابة عن المعلم

يحذر ابن سحنون من تعيين نائب للمعلم يتولى أمور المتعلمين في حال غيابه، إذ لا يحق له التغيب لأنه أجير من جهة، ومن جهة أخرى هو المسؤول الوحيد عن المتعلمين، ولكن قد تقتضي ظروف معينة تغيبه، وحرصا على مصلحة المتعلمين يمكن له أن يعين لهم من ينوب عنه فترة غيابه بناءا على شروط معينة يجب توفرها في هذا النائب وهذه الشروط هي:

- أن يكون خاتما للقرآن.

- أن يكون مستغنيا عن التعليم.
- أن يأذن والده بذلك.

المطلب السادس: خلاصة

تكمن رسالة "آداب المعلمين" في توضيح كيفية التعليم التي كانت متبعة على عهد ابن سحنون أي القرن الثالث الهجري, حيث التركيز على تعليم الأطفال القرآن الكريم وما يلزم ذلك من تعلم اللغة، وأيضا تعليمهم أسس دينهم، كما تبين العلاقة بين المعلم والمتعلم وولييه، والوسائل المستعملة في التعليم كالألواح وغيرها...كما تطرقت إلى العطل وإجارة المعلم...تقول الدكتورة "هيام المولى": "رسالة ابن سحنون تعطي صورة عن منهج التعليم المتبع في الكتاب، مواده، طرائقه، ما هو إجباري، وما هو مستحسن، وهي تجيب عن مسائل يطرحها المعلم أو الأب أحيانا، تدخل في أصول العلاقة وأحكامها بين المعلم والصبيان[58]".

وإذا تفحصنا المنهاج الذي صار عليه ابن سحنون في رسالته سنجده متأثرا بتكوينه الفقهي الشرعي، ويظهر ذلك من أسلوب الرسالة وصياغتها، حيث يعتمد على أسلوب الحوار، الشيء الذي جعل الرسالة تبدو أقرب إلى الفتاوى منها إلى نظرية تربوية بالمفهوم الحديث. وقد ساعد التكوين الشرعي ابن سحنون على إيجاد الحلول للمشاكل التي كان يعاني منها التعليم في عهده، فهو (ابن سحنون) كغيره من المربين المسلمين يستمد المبادئ التربوية التي تقوم عليها تربية الطفل من أصول التشريع الإسلامي أي من الكتاب والسنة والإجماع والقياس. واعتمادا على هذا كله فإن رسالته اعتبرت قانونا تعليميا يرجع إليه المعلمون وأولياء التلاميذ كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

المطلب السابع: خطاطة تلخص أهم المحاور التي اهتم بها ابن سحنون في موضوع التربية

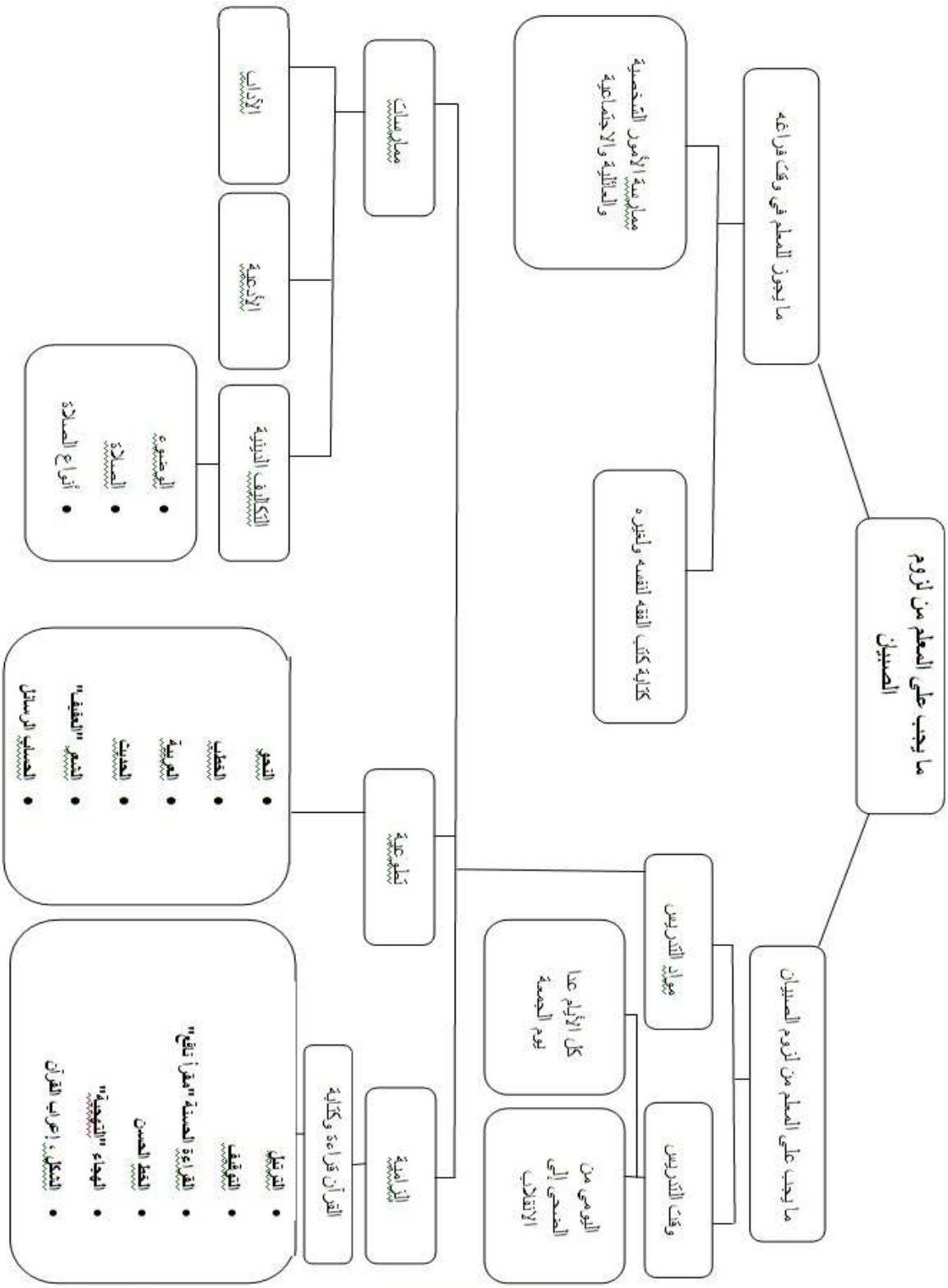

خاتمة البحث:

يعد البحث عموما وسيلة من الوسائل التي تمكن طالب العلم من الانتقال من مرحلة الأخذ إلى مرحلة العطاء، كما أنه المجال الذي يستخدم فيه الطالب أنواع المناهج العلمية التي استقاها من مؤلفات عديدة.

والذي توصلت إليه من خلال هذه البحث أنه إذا كانت التربية في الغرب في العصر الحديث، قد بلغت الغاية المرجوة منها، فإن التربية عندنا بالمجتمعات الإسلامية لازالت تشكو من الضعف. مع أنه كان لنا السبق في هذا المجال. فتراثنا العربي الإسلامي القديم كان في حقيقته وواقعه على حال خير من الحال الذي هو عليه الآن. فلقد كان للعلماء المسلمين محاولات جادة، وجهود وأعمال رصينة، ونظرات دقيقة وصائبة في دراستهم لقضية التربية بكل أبعادها ومستوياتها اللغوية والدينية والمنطقية، والفلسفية، وكان الأصل الذي تقوم عليه هذه الجهود كلها هو القرآن والسنة، بما يطرحانه من مفاهيم ورؤى وأحكام، مما جعل قضية التربية تتخذ في التراث الإسلامي بعدا نظريا وتطبيقيا خاصا ومتميزا.

ولعل ابن سحنون وغيره من العلماء المسلمين الذين أسهموا إسهاما جادا في دراسة قضية التربية في مستواها النظري والتطبيقي، حيث كانت هذه القضية هي المحل الأول من اهتماماتهم، وضلوا يسعون إلى أحسن وأجود الأساليب التربوية بطريقة علمية وموضوعية تقوم على أساس من الحجة والدليل قصد الوصول في النهاية إلى ما يرونه أقرب إلى وجه الحق والصواب، وهذا ما جعل منهم رائدين في مجال التربية بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وفي الختام فإنني لا أدعي أن هذا البحث قدم الكلمة النهائية في هذا الموضوع، وأحاط به من كل جوانبه، وإنما هو جهد _أسأل الله عز وجل أن يتقبله_ أحسب أنه يعطي فكرة ولو تقريبية عن هذا الموضوع.

وخير ما أختم به هو قوله تعالى:" رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " سورة البقرة الآية 286.

الهوامش:

1 محمد خير عرقسوسي، مجلة الهدى العدد 34و35 رمضان 1419 مقال تحت عنوان: مفهوم التربية والتربية الإسلامية، ص2.

2 مجلة الهدى مرجع سابق ص 2و3.

3 LE DICTIONNAIRE ESSENTIEL DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE ILLUSTRE 1993.P : 583

4 LALANDE .A VOCABULAIRE TECHNIQUE ET CRITIQUE DE LA PHILOSOPHIE P.U.F. P 532

5 عبد اللطيف الفاربي وعبد العزيز الغرضاف ومحمد أيت موحى وعبد الكريم غريب معجم علوم التربية ص 89.

6 المرجع نفسه ص 90.

7 أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة ص 381 و382 بتصرف.

8 مجلة الهدى، موضوع تحت عنوان "مفهوم التربية والتربية الإسلامية" مرجع سابق ص 7.

9 عبد الرحمان النحلاوي "أصول التربية الإسلامية وأساليبها" ص 18.

10 سيف الإسلام علي مطر، التغيير الاجتماعي. ص 32.

11 سيف الإسلام علي مطر، التغيير الاجتماعي، مرجع سابق ص33.

12 عبد الله الشارف، أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب. ص 25.
13 المرجع نفسه ص 26.
14 المرجع نفسه ص 27.
15 الدكتور محمد التومي الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية. ص 313-314-315.
16 د عبد الرحمان عبد الرحمان النقيب، ود صلاح أحمد مراد "مقدمة في التربية وعلم النفس" ص 17.
17 أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، تحت رقم 220.
18 أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي "رياض النفوس في طبقات علماء إفريقيا وزهادهم وعبادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"، ج 1 ص 318.
19 المرجع السابق ج 1 ص 249.
20 المقصود ببلاد المغرب هو شمال إفريقية.
21 عبد الوهاب حسن حسني "مجمل تاريخ الأدب التونسي". ص 52.
22 نفسه ص 52.
23 ابن عذاري المراكشي "البيان المغرب في أخبار المغرب", ص 142.
24 الذهبي "سير أعلام النبلاء"، ج 13 ص 61.
25 تأليف لجنة من الأساتذة تحت إشراف الدكتور محمد الدريج "الدليل التربوي"، العدد الثالث، ص 50.
26 محمد بن الحسن الحجوي "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، ج 2 ص 99.
27 القاضي عياض "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك"، ج4 ص220.
28 ثلاث درر أي ثلاث ضربات بالدرة.
29 العطلة التي يمكن أن يمنحها المعلم للمتعلمين.
30 العطل الرسمية.
31 الصبيان أي المتعلمين.
32 العريف: هو أحد المتعلمين لكنه ختم القرآن واستغن عن التعليم.
33 هذا ما أصبح يصطلح عليه الآن ببيداغوجيا التعليم بالأقران.
34 أثبتت الدراسات الحديثة أن الضرب على الرأس أو الوجه يقتل ثلاث مائة خلية عصبية (تقرير للدكتورة آن مكيي من كلية الطب بجامعة بوسطن من خلال موقع:http://enfantquifrappe.net).
35 المقصود هنا أنه لا يجوز للمعلم أن ينشغل على المتعلمين بشيء كان حقيرا أو عظيما.
36 ذكر بن سحنون هذه الأشياء على سبيل التمثيل للمواد المدرسة التي يجب أن يلقنها المعلم للمتعلمين.
37 مكان التدريس أو الكُتاب.
38 وجعل له ابن سحنون عشية الأربعاء ويوم الخميس.
39 جعل ابن سحنون يوم الجمعة هو يوم الراحة الأسبوعية وذلك ليتمكن المعلم والمتعلمين من الذهاب باكرا للمسجد لأداء صلاة الجمعة فكما نرى أن للعبادة موقعا مركزيا في مهنة التدريس.
40 المقصود هنا هو تعليم التلاميذ مقامات القراءة.
41 هذا هو الوقت الذي اختاره ابن سحنون لكتابة المراد حفظه على الألواح.
42 تشجيع العمل الجماعي والتعلم بالأقران.
43 يرى ابن سحنون أنه على المعلم أن يشجع التلاميذ أن يعلم بعضهم بعضا لكن تحت إشرافه حتى لا يتعلموا الخطأ.
44 يرى ابن سحنون أنه على المعلم أن يتجنب الاختلاط في التعليم لأن في ذلك فساد لهم.

45 لأنه من الثابت أن هذه أسماء للشياطين يستخدمها السحرة في التنجيم راجع هذا المعنى بتفصيل في(كتاب الأرقام العربية – للدكتور قاسم علي سعد – دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث – دبي).

46 أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، تحت رقم 4640.

47 مجلة الهدى عدد 35/34، ص 27.

48 الطريقة الإلقائية: طريقة تواصل أحادي الاتجاه من مدرس "محاضر" إلى تلاميذ "مستمعين".

49 الطريقة الحوارية: طريقة تعتمد تقنية سؤال/جواب، فإذا كان الحوار بين المدرس والتلاميذ فهي عمودية, وإذا كان الحوار بين التلاميذ أنفسهم تحت إشراف المدرس فهي أفقية.

50 محمد كيزي ومحمد اليوبي، مقال تحت عنوان "النهج التربوي عند ابن سحنون"، مجلة الهدى العدد 35/34، ص 28.

51 رضوان أبو الفتوح بدران "المعلم في المدرسة والمجتمع الإسلامي" ، ص 15.

52 التأديب: أدب يؤدب علم، فالتأديب هو التعليم. ويقال يؤدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. لسان العرب 206/1.

53 قال العلامة عبد الله بن الصديق رحمه الله في تحقيقه لكتاب " تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة " لأبي الحسن علي بن محمد الكناني هذا الحديث من حديث أبي هريرة وفيه عبد الرحمن بن القطامي وأبو المهزم وإنما يعرف هذا من قول مكحول، قال السيوطي: ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال عن الحسن قوله (قلت:) ورواه الحسين بن فنجويه في كتاب المعلمين عن مجاهل قوله وعن ابن عباس موقوفا بلفظ: إن المعلم إذا لم يعدل كتب من الظلمة وفيه عثمان بن عبد الله الأموي متهم وروى أيضا عن أبي أمامة مرفوعا: أبعد الخلق من الله عز وجل رجلان رجل يجالس الأمراء فما قالوا من جور صدقهم عليه ومعلم الصبيان لا يواسي بينهم ولا يراقب الله في اليتيم وفيه محمد بن أيوب النصيبي وأظنه الرقي وعنه أحمد بن عبد الملك وأظنه الراوي عن مالك، قال الدارقطني: مجهول ورجلان آخران لم أعرفهما وروى أيضا عن أنس مرفوعا: أيما مؤدب ولي تعليم ثلاثة صبيان من أمتي، ثم لم يعلمهم بالسوية ولم يعدل بينهم حشر يوم القيامة مع قتلة الأنفس إلى نار جهنم وفيه داود بن المحبر فليس ينجبر مرفوعا والله تعالى أعلم.

54 أحمد فؤاد الأهواني" التربية في الإسلام"، محمد ابن سحنون "رسالة آداب المعلمين", ص 357.

55 نفسه ص 357.

56 المقصود الفصل بين الذكور والإناث في قاعة الدرس لاجعل قاعة للذكور وقاعة للإناث.

57 أورده بن عدي في كتابه الكامل في الضعفاء وقال فيه" سمعت نعيم بن عبد الملك يقول سمعت أبا جعفر الحضرمي يقول سمعت يحي بن معين وسئل عن سيف بن عمر فقال فليس خيرا منه أنا الحسن بن سفيان ثنا يعقوب بن سفيان ثنا عبيد بن إسحاق العطار الكوفي ثنا سيف بن عمر قال كنت عند سعد الإسكاف فجاء ابنه يبكي فقال ما لك قال ضربني المعلم قال أما لأخزينهم اليوم حدثني عكرمة عن بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم معلمو صبيانكم أشراركم أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين قال الشيخ وهذا حديث منكر موضوع وقد اتفق في هذا الحديث ثلاثة من الضعفاء فرووه عبيد بن إسحاق الكوفي العطار يلقب عطار المطلقات ضعيف وسيف بن عمر الضبي كوفي وسعد الإسكاف كوفي ضعيف وهو أضعف الجماعة فأرى والله أعلم أن البلاء من جهته، انتهى.ج3، ص 851.

58 الدكتورة هيام المولى مقال تحت عنوان"طبيعة العلاقة بين العالم والمتعلم في نماذج من الفكر التربوي الإسلامي" ، مجلة الفكر العربي، العدد 21 ص 37.